من تاريخ الأدب الفرنسي

بوفون وحديثه عن الاسلوب

للأستاذ أحمد أحمد بدوى

في حديقة النباتات بباريس ، وأمام متحفها ، يجلس تمثال بوفون Buffon ، باديا على محيّاه وقار العلماء ، وهدوء الباحثين ، وسكينة النفس ، واطمئنان الضمير ، ولقد أحسن الفرنسيون في اختيار هذا المكان لتمثاله ، فقد وقف الشطر الأكبر من حياته على دراسة ما في الطبيعة من حيوان ونبات .

ولد بوفون في السابع من سبتمبر سنة ١٧٠٧ في مونتبار القريبة من ديجون ، وقضى تعليمه العالي بكلية ديجون ، ولم يكن متميزا فيها إلا بميله إلى الرياضيات . وظل بيفون إلى الثانية والثلاثين من عمره غير مهتد إلى السبيل التي هيأته الطبيعة لها ، ولم يقم بما يدل على أنه سيكون في قابل حياته العالم العبقري والكاتب الممتاز ، وفي تلك المرحلة قام برحلة مع أحد الأمراء إلى إيطاليا ولندن ، وألقى بحثاً في المجمع العلمي نال به لقب العضو المساعد ، وترجم عن الإنجليزية بعض الكتب العلمية . وإذا كانت المصادفة تقود خطى بعض الناس ، وتكشف لهم عما يكمن في أنفسهم من المواهب ؛ فإن الصدفة قد لعبت دوراً كبيراً في حياة بيفون ، وحددت له الطريق الذي يجب أن يوجه اليه جهده ، فقد عين مديراً لحدائق الملك ، وكلفه الوزير أن يضع وصفاً منهجياً لما بالمقصورة الملكية من مجموعات النباتات ، ومنذ ذلك الحين وجد بيفون طريقه ، وخصص نفسه لدراسة التاريخ الطبيعي .

كان حينئذ في الثانية والثلاثين من عمره ، وقضى المدة الباقية له في الحياة ، وقدرها تسعة وأربعون عاما ، بين باريس التي كان يفر منها كلما استطاع ذلك وبين بلدته مونتبار ؛ وهناك كان ينهض من نومه الساعة الخامسة ، ويحبس نفسه بمكتبه يملي إلى التاسعة ، ويفطر في نصف ساعة يعود بعدها إلى العمل حتى الساعة الثانية إذ يتغدى . وهكذا كان يقضي كل يوم إلى نهاية حياته سنة ١٧٨٨

قدر بيفون أن يخرج كتابه : التاريخ الطبيعي العام والخاص في خمسة عشر مجلدا ، ولكنه لم يتم إلا بعد أن صار ستة وثلاثين مجلداً ، ولقد أحرز ما ظهر من هذا الكتاب في حياته شهرة واسعة ، وأقبل عليه القارئون في شوق وحب .

كان بيفون ذا نفس سامية متزنة ، مستقلة ، هادئة ، وكان بعيدا كل البعد عما يدور في عصره من المجادلات والاضطرابات وعاش للدرس والبحث والتأمل ، واجدا في ذلك كل سعادته .

ولكي يجعل التاريخ الطبيعي — وهو مادة جافة — مقبولا لدى الذوق احتاج أن يكون في ذكاء كاتب من الدرجة الأولى .

وفي سنة ١٧٥٣ دعاه المجمع الفرنسي إليه من غير أن يتقدم بيفون بطلب إلى المجمع ، واستقبل فيه يوم ٢٥ من أغسطس ، وألقى حديثاً عرض فيه بعض خواطره عن الأسلوب ، وقد أثرت نقل هذا الحديث إلى اللغة العربية بجملته حتى لا يتوهم التلخيص ؛ قال بيفون :

سادتي :

لقد غمرتموني بالشرف حين دعوتموني إليكم ، ولكن التشريف لا يكون مزية إلا اذا كان المرء به جديرا ؛ وأنا - لا أستطيع أن أقنع نفسي أن بضع مقالات كتبت خالية من الفن وغيره من الزخارف سوى زخرف الطبيعة تكون حججاً كافية للجرأة على أخذ مكان بين سادة الفن ، والرجال الأمجاد الذين يمثلون هنا عظمة فرنسا الأدبية ، والذين سارت أسماؤهم في مختلف الأمم ، وسيظل ذكرهم حياً رفيعاً على ألسنة آخر أحفادنا . وإن لكم أيها السادة لبواعث أخرى في اختياركم إياي ، ذلك أنكم أردتم أن تقدموا للمجمع العلمي المجيد الذي كان لي الشرف باتصالي به منذ زمن بعيد[1] — علامة جديدة من تقديركم ، وإن اعتراف بجميلكم — مهما يكن مقدما — لن يكون لتقسمه أقل قوة .

والآن ، كيف أؤدي الواجب المفروض عليّ ؟ ليس لديّ أيها السادة ، ما أقدمه إليكم سوى ما لكم أنتم من فضل . فهو بعض أفكار عن الأسلوب استقيتها من كتبكم ، فبقراءتي لكم وبإعجابي

(١) كان بيفون عضواً في المجمع العلمي منذ سنة ١٧٣٣

بكم أدركتها ؛ وبعرضها تحت أضواء أفكاركم تتضح فى جلاء .

فى كل الأزمنة وجد رجال عرفوا كيف يسيطرون على غيرهم بقوة الكلام ، ومع ذلك لا تعرف الكتابة الجيدة وفصاحة القول إلا فى العصور المستنيرة ، وإن الفصاحة الحقيقية تتطلب مران العبقرية والموهبة النفسية ، وهى فى الحق تختلف عن السهولة الخلقية فى الكلام التى ليست إلا نوعا من القطنة ، موهوبا لكل هؤلاء الذين عواطفهم قوية وألسنتهم مطواعة وخيالهم سريع . هؤلاء الناس يشعرون شعوراً قويا ، ويتأثرون بقوة أيضاً ، ويبرزون شعورهم فى الخارج مدموغاً بالقوة ؛ وبتأثير آلىّ محض ينقلون إلى الآخرين حماستهم وانفعالاتهم . إن الجسم هو الذى يتحدث إلى الجسم، فهكل الحركات والإشارات تتعاون وتخدم أيضا

ماذا يجب لإثارة الجماهير وقيادتها ؟ وماذا ينبغى لتحريك القسم الأعظم من الرجال وإقناعهم ؟ نغمة حادة مؤثرة ، وإشارات معبرة كثيرة ، وكلمات سريعة رنانة . ولكن العدد القليل من أصحاب العقول الراجحة ، والأذواق الدقيقة ، والمشاعر السامية ، الذين هم على شاكلتكم — أيها السادة — ممن يستقلون النغمة والإشارات ، والرنة الفارغة للكلمات ، تجب له أشياء أخرى وأن تقدم إليه أفكار وحجج ، ينبغى لمن يقدمها أن يعرف كيف يبرزها وكيف يلونها وينسقها ، ولا يكفيه أبداً أن يقرع الأذن أو يشغل العين ، بل يجب أن يحزك الروح ، ويلمس القلب ، متحدثاً إلى اللُّب [1] .

ليس الأسلوب إلا النظام والحركة التى يضعها المرء فى أفكاره [2] ، فإذا ربطت هذه الأفكار بدقة ، وضمت ، صار الأسلوب متيناً قوياً موجزا ، أما إذا تركت تتتابع فى بطء ولا تأتلف ، إلا بفضل رباط الكلمات ، مهما كانت أنيقة فإن الأسلوب يكون مسهبا رخواً مملاً .

ولكن قبل أن نبحث عن النظام الذى تصب فيه الأفكار يجب أن يكون ثمت خطة أشمل وأثبت ، من الواجب ألا يدخل فيها سوى العناصر الأولى ، والأفكار الأساسية [1] ، وإنه بتعيين مكان العناصر والأفكار من هذه الخطة البدائية ، يكون الموضوع محدداً معروف المدى ، وبالتذكر الدائم لهذه الخطوط تحدد المسافات الصحيحة للأفكار الأساسية ، وتخلق الخواطر الإضافية الثانوية التى تفيد فى إكمالها بقوة العبقرية ، نستحضر كل الأفكار العامة والخاصة فى نموها الحقيق ، وبالدقة العظيمة فى الفرز تتميز الأفكار المجدبة من الخصبة ، وبالبصيرة النافذة المتنبئة التى يأتى بها كثرة اعتياد الكتابة يشعر الكاتب سلفاً بما سوف تفضى إليه كل عملياته العقلية . وعندما يكون الموضوع واسعاً أو معقداً يكون من البين أنه من النادر أن يستطاع شموله بنظرة واحدة ، أو اختراقه بأول مجهود للموهبة . ومن النادر كذلك أنه حتى بعد تأملات عدة أيضاً تدرك كل تفصيلاته فلا يستطاع إذاً أن يشغل الكاتب نفسه بذلك كثيراً ، ومع هذا ، تلك هى الطريقة الوحيدة لتوطيد أفكار الكاتب ، وتفصيلها والسمو بها : فكلما منحها ما يقومها ويقويها بالتفكير يكون من السهل عليه بعدئذ أن يوضحها بالتعبير .

ليست هذه الخطة مع ذلك بالأسلوب ، ولكنها قاعدته . هى التى تصونه وتقوده وتنظم حركته ، وتخضعه للقوانين ، وبدونها يضل خير الكاتبين ، ويسير قلمه بدون قائد ، ويأتى مصادفة بصفات شاذة ، ومجازات متنافرة ؛ ومهما تكن الألوان التى يستخدمها لامعة ، والمحسنات منثورة فى الجزئيات ، فإن العمل فى جملته يصدم الإحساس ولا يتضح ، ولن يكون التأليف أبداً محكم البناء . ومع إعجابنا بعقل المؤلف يستطاع الارتياب فى أن الموهبة تنقصه [2] . ولهذا السبب كان هؤلاء الذين يكتبون كما يتكلمون — مهما كان حديثهم عظيم الجودة — ذوى كتابة

---

(١) لا يقبل بفون إلا فصاحة التفكير ، والتفكير عنده أساس كل تأثير

(٢) هذه هى الفكرة السائدة فى المقال ، وهى أول تحديد للاسلوب ولها قيمة خاصة ، إذ أنها لا تفرق بين المعنى والصورة ، وتعود بفن الكتابة إلى فن التفكير الدقيق المنظم .

(١) هذه هى الخطة التى اتبعها بفون ، فإنه قبل أن ينشر المجلدات الثلاثة الأولى لكتابه التاريخ الطبيعى ، كانت خطة كتابه كاملا قد نشرت فى مجلة العلماء Journal des Savants .

(٢) قال فنلون Fénelon : إن المقال لا يكون له نظام حق إلا إذا كان من غير المستطاع أن نضع جزءا مكان آخر بدون أن نضعف المجموع أو نبهمه أو نخل به ، وكل مؤلف لا يضع هذا النظام لمقاله لا يملك موضوعه حقاً ، وليس له إلا ذوق غير كامل وفطرة منتقصة . ويجب أن يشمل النظر كل شىء ويخترق كل شىء ليعرف المكان الدقيق لكل كلمة .

رديئة ؛ وهؤلاء الذين يتبعون أول شرارة يقدحها خيالهم يأخذون سمة من لا يستطيعون ضبط أنفسهم ؛ وهؤلاء الذين يخافون أن يفقدوا أفكارهم المفرّقة الشاردة ، ويكتبون فى أوقات مختلفة قطعاً متفرقة لا يستطيعون أبداً أن يجمعوها بدون تغيير اضطرارى ، وفى كلة واحدة : نجد كثيراً من المؤلفات قد كون من قطع شتى وقليل منها ما له هدف واحد .

ومع ذلك كل موضوع وحدة[1] ، ومهما يكن البحث واسعاً فمن الممكن وضعه فى مقال واحد ، والانقطاعات والاستراحات والتقسيمات لا يصح أن تستخدم إلا عند ما تعالج موضوعات مختلفة ، أو عند التحدث فى أشياء جليلة شائكة متباينة ؛ فيجد تيار التفكير نفسه معترضاً بشتى العقبات ، ومكرها بضرورة الظروف ؛ وفضلا عن ذلك ترى كثرة الأقسام ، مع بعدها عن أن تجعل الموضوع شديد الإلتحام تهدم وحدته . وإن الكتاب بها يبدو أمام العينين واضحاً ، ولكن هدف المؤلف يظل غامضاً ، ولا يمكن أن يؤثر فى نفس القارئ ؛ وإن الغرض لا يدرك إلا باتصال الأفكار ، وارتباطها ارتباطاً ملتئما ، وبالشرح المتتابع ، والتدرج الآخذ بعضه بحجز بعض ، وبالحركة المتسقة التى يهدمها كل انقطاع أو يضعفها .

ولماذا كانت أعمال الطبيعة تامة الكمال ؟ ذلك أن كل عمل وحدة تامة ، وأنها تعمل تابعة لخطة خالدة لا تفارقها أبداً . إنها تهيئ فى صمت بذور ما تنتجه ، وترسم بنظام واحد الشكل الأول لكل المخلوقات الحية ، وتنميه ، وتكمله بحركة دائمة وفى وقت معين . العمل عجيب ، ولكنه الطابع الإلهى فيه سماته التى يجب أن تؤثر فينا . وإن النفس الإنسانية لا تستطيع أن تخلق شيئاً ، ولا تنتج إلا بعد أن تكون خصبة بالتجربة والتأمل ؛ ومعارفها بذور إنتاجها ، ولكنها إذا قلدت الطبيعة فى سيرها وعملها ، وإذا ارتفعت بالتأمل إلى أسمى الحقائق فوحدتها وربطتها ، وكونت منها بالتفكير كلًّا ومنهاجا فإنها تبنى آثاراً خالدة على أسس لا تتزعزع .

إنه لمن نقص فى الخطة ، ومن عدم التفكير الكافى فى الغرض ، أن رجلا ذكياً يجد الموضوع يملك نفسه ولا يعرف بم يبدأ الكتابة . إنه يدرك مرة واحدة جملة عظيمة من الأفكار ، ولأنه لم يستطع أن يوازن بينها ، ولا أن يلحق فكرة بأخرى ، لا يمكنه أن يجزم بتفضيل بعضها على بعض ، ويظل إذاً يتخبط فى حيرته .

ولكنه منذ أن يضع الخطة ، ومنذ أن يجمع أفكاره الأساسية للموضوع وينظمها ، يدرك فى الحال بسهولة ما يجب أن يتناوله قلمه ، وسيشعر باللحظة التى يتم فيها نفح فكرته ، وسيجد نفسه معجلا إلى الإنتاج ، ولن يجد إلا السرور بالكتابة ، تتتابع الأفكار فى يسر ، ويصير الأسلوب طبيعياً سهلا ، وتتولد الحرارة من هذا السرور ، وتشيع فى كل مكان ، وتعطى الحياة لكل تعبير ، وينتعش كل شىء كما تقدم الكاتب فى الكتابة ، وترتفع نغمة الأسلوب ، وتأخذ الأشياء ألوانا زاهية ، والشعور منضما إلى الوضوح يفخمها ويقويها ، ويصير الأسلوب بذلك جذاباً مشرقاً .

لا شىء يعارض الحرارة إلا الرغبة فى أن نضع دائماً عبارات أخاذة . ولا شىء ينافى الوضوح والضوء الذى يجب أن يكون له مركز ينتشر منه متناسقاً فى المؤلَّف كله — إلا هذه الومضات التى تغتصب بالقوة من تضاد الكلمات بعضها لبعض ، والتى لا تبهرنا بعض الوقت إلا لتتركنا بعدئذ فى الظلمات . إنها أفكار لا تلمع إلا بتضادها[1] ، ولا تبرز إلا جانباً من جوانب الموضوع بينما يوضع فى الظلام كل الجوانب الأخرى ؛ وفى العادة يكون هذا الجانب الذى يختار حدا أو زاوية يتلهى الذهن بها بسهولة ، بينما يكثر بعده عن الجوانب العظيمة التى اعتاد الفكر المستقيم أن يقدر بها الأشياء .

[البقية فى العدد القادم]

أحمد أحمد بدوى
مدرس بحلوان الثانوية للبنين

(١) قال فلون ذلك عينه وبالأسلوب نفسه تقريباً ؛ قال : كل مقال وحدة ، وإنه ليعود إلى قضية واحدة وضحت بعبارات مختلفة . هذه الوحدة فى القصد جعلت الكتاب بجملته يرى بنظرة واحدة كما يرى من ميدان فى المدينة جميع الشوارع والأبواب إذا كانت الطرق كلها مستقيمة منتظمة مهندسة . إن المقال لهو القضية مشروحة ، وإن القضية لهى المقال مجملا .

(١) قال باسكال Pascal هؤلاء الذين يصنعون ألوان الطباق باكراه الكلمات مثلهم مثل هؤلاء الذين يصنعون نوافذ كاذبة للتناسب .